أثر العمل الخيري
في تعزيز القيم المجتمعية
الموصل (نينوىٰ) أنموذجًا

الأستاذ الدكتور

عبدالستار جاسم محمد الحياني

الدكتورة

مها غانم الحياني

ملخص البحث

يعد العمل الخيري صمام أمان، ومصدرًا من مصادر الإنقاذ للفئات المجتمعية المحرومة أو المنكوبة، إذ يشكل لها حماية وتلبية مالية، وبدنية، وفكرية، وقيمية تسهم في بث الأمن والسلامة والطمأنينة والاستقرار بين أبناء المجتمع، فيعمه الخير والنقاء، وتسوده الأخوة والتكافل. ومن هنا تناولت ورقتنا البحثية موضوع (أثر العمل الخيري في تعزيز القيم المجتمعية – الموصل (نينوىٰ) أنموذجًا)، وقد تضمنت مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة. تناولنا في **المقدمة** مفهوم العمل الخيري وأبعاده وآثاره المجتمعية، وبيان مفاهيم القيم علىٰ الصعيدين الاجتماعي والديني، ثم حاجة مجتمعاتنا الإسلامية ولاسيما العربية إلىٰ تفعيل أنشطة العمل الخيري علىٰ الأصعدة كافة. ثم جاء **المبحث الأول**: (العمل الخيري في المجتمع الموصلي – الأسس والجذور) لبيان صور العمل الخيري وتوضيحها في مدينة الموصل موضوعة الورقة، وكيفية تطوره، بجذوره وأسسه بين أبناء المجتمع، ليبدأ من جهود فردية، ثم يتطور إلىٰ عمل مؤسساتي منظم ومبرمج. ودرس **المبحث الثاني:** (العمل الخيري وتعزيز قيم الفرد) بيان الدور الرائد للمؤسسات والهيئات والجمعيات الخيرية في تعزيز قيم الفرد، وبناء الشخصية الايجابية في المجتمع، بخاصة بعد انهيارها وخروجها من كوارث طبيعية أو إنسانية. وخصصنا **المبحث الثالث** للحديث عن: (العمل الخيري وتعزيز القيم الأسرية) التي تلاشت بين ركام المدينة المنكوبة وحطامها بكل

صورها وأشكالها، بين تشدد العصابات الاجرامية داعش، وتحت أصوات مدافع وصواريخ قوات التحرير العشوائية، التي زرعت الرعب والخوف في كل فئات المجتمع الموصلي. ثم جاء **المبحث الرابع** والاخير لنتحدث فيه: عن (العمل الخيري وتعزيز القيم المجتمعية) وقد خلفت معارك التحرير من عصابات داعش الإجرامية في مدينتنا الموصل كارثة كبيرة بكل مستوياتها المادية والمعنوية، فضلا عن تهالك القيم المجتمعية بين أبناء المجتمع، بسبب سلوكيات عصابات داعش، وبسبب الحاجة والعوز والحرمان، والإشراف علىٰ الهلاك بفقدان كل مقومات الحياة الإنسانية؛ لتأخذ تلك الجمعيات دورها الفاعل في بث روح الامل والتفاؤل، والعودة من جديد إلىٰ سلم الحياة الإنسانية الطبيعية التي ينبغي أن تكون. وختمت الورقة **بخاتمة** لبيان أهم النتائج التي توصلنا، مع بيان التوصيات المرجوة مستقبلا للعمل الخيري في عالمنا العربي والإسلامي.

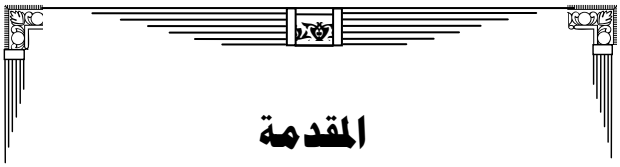

المقدمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ سيد المرسلين وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهديه إلىٰ يوم الدين.

لما كان العمل الخيري يمثل قيمة إنسانية كبرىٰ تتمثل في العطاء والبذل بكل أشكاله، وسلوك حضاري حي، لا يمكنه النمو سوىٰ في المجتمعات التي تنعم بمستويات متقدمة من الثقافة والوعي والمسؤولية، فهو يؤدي دورًا مهمًّا وإيجابيًّا في تطوير المجتمعات وتنميتها. فالمؤسسات والهيئات والجمعيات الخيرية تعد أداة لتنفيذ المبادئ الإسلامية، الحاثة علىٰ فعل الخير، وإسداء النفع للناس وخدمتهم، التي تمثل صمام أمن وأمان وقائي بين المجتمعات والدول ذاتها، حيث يساعد علىٰ نزع مخالب الشح من المجتمع، ونشر قيم الود والتراحم والتعاطف والتكافل، وكذلك يعمل علىٰ تقليص الجريمة بين أوساط المجتمع.

يمكننا القول إن العمل الخيري شهد تغيُّرًا ملحوظًا ومهمـًا علىٰ مدىٰ العَقدين الماضيين. وحتىٰ فترات سابقة كان من النادر أن نجد مَن يتحدَّث عن الشغف بالعمل الخيري المؤسس والمنظم، وعن القيم وتحمل المسؤولية، أما الآن فقد صارت هذه المصطلحات شائعة التداول، وأصبحت مرتبطة بالعمل الخيري بكل صوره وعلىٰ كافة الأصعدة[1].

(١) ينظر: سوندرا شو-هاردي ومارثا إيه تايلور وبافي بودوان-شوارتر، المرأة والعمل الخيري، ٢٨.

ومما لاشك فيه أن موضوعة القيم من المسائل التي تتشابك فيها الدلالات، وتتداخل تداخلاً كبيراً، بين دلالة عامة لمفهوم القيمة، ودلالة خاصة لها، تخضع للتخصص العلمي أو العملي، وما بين ذاتية وأخرىٰ موضوعية، وما بين دلالة قديمة وأخرىٰ جديدة، ولسنا بصدد بيان حد القيمة في اللغة، ولكن ما ينبغي أن نبينه هو مفهوم القيمة وبخاصة أنه يختلف بين الأمم والمجتمعات، ومنها الغربية والشرقية أو الإسلامية. ففي المعاجم المتخصصة ترد القيمة علىٰ أنها الدافع الإيدلوجي الذي يؤثر في أفكار الإنسان وسلوكه، أو هي ضوابط سلوكية تتأثر بأفكار الإنسان ومعتقداته، وهذه الضوابط تضع سلوك الإنسان في قالب معين يتماشىٰ مع ما يريده المجتمع ويفضله[1]. أو هي مجموعة الخصائص الثابتة التي يُقدر الشيء بها، ويرغب فيه من أجلها، ويتكون سلم القيم للأشياء من جهة تفاوتها فيما يقتضي لها التقدير أو ما يبعث علىٰ الرغبة فيها[2]. ومن عموم هذه الآراء يتبين أن تعريف القيم ينطلق في الأصل من تصورات يمكن أن تكون علمانية لمعنىٰ الحياة تفترض أن القيم تنبثق من طبيعة واقع المجتمع، وليس ذلك إلا لأن مفاهيم القيم هذه تولدت في رحم علم الاجتماع، الذي هو بمفاهيمه الحديثة نشأ في أوروبا العلمانية.

وحين جاءت المسيحية أبرزت ما للتعاليم والوحي السماوي من شأن في الحكم علىٰ قيم الأشياء والأعمال، التي تكبر بشعور ما يترتب عليها من ثواب. وقد أكثر الإسلام في هذا، وأبرزه في صورة واضحة، وبين ما يربط الحياة الدنيا بالحياة الأخرىٰ. إن لهذا الارتباط شأنًا في تقويم الأشياء والأعمال، والحكم

(١) ينظر: إحسان محمد الحسن، موسوعة علم الاجتماع، ٥١٤-٥١٥.

(٢) ينظر: إبراهيم مدكور، معجم العلوم الاجتماعية، ٤٧٣.

عليها، وخطاب الله عز وجل هو الفيصل في الحكم علىٰ الحسن والقبح، والمباح والمحرم. فالحسن ما وافق الشرع، واستوجب الثواب، والقبيح ما خالف الشرع، وترتب عليه العقاب، فأعمال الدنيا مقومة بحسب ما يترتب عليها في الاخرة من عقاب أو ثواب، وقيمة الأشياء من حيث ما تحصّله للإنسان من حسن الأفعال أو قبحها(١).

وعلىٰ هذا الأساس، فإن القيمة هي مفهوم شرعي، وليست مفهومـًا وضعيا، وهذا يجرد القيمة في الحقيقة من أي دلالة ذاتية أو نسبية ليعطيها أهمية مطلقة، تنبثق مما منحه الوحي للأشياء من حسن أو قبح، وثواب أو عقاب(٢)؛ لذلك فإن القيم أهداف سامية أخبر عنها القرآن الكريم، وتحدث بها النبي ﷺ، ورغب بها في السلوك الحياتي، وفي العلاقات الاجتماعية، وفي التعاملات اليومية، وهي مقاييس يدل تحقيقها علىٰ المكانة الاجتماعية، ومكانة الانسان عند ربه(٣). ففي الإسلام نسق قيمي موحد، يحكم كل جوانب الحياة الاجتماعية، فليس ثمّ انفصال بين المسجد والدولة التي ينبغي أن تعكس القيم الاسلامية في أفعالها كلها، وأن ثمة علاقة وثقىٰ بين القيم والاعتقاد والواقع الاجتماعي(٤). إن ادراك الإنسان للقيم، يضعه في مكانة سامية لا يرقىٰ إليها كائن آخر، وعلىٰ أساس هذا الإدراك وتلك المكانة يقوم الحد الفاصل بين عالم الإنسان وعالم الكائنات

(١) ينظر: إبراهيم مدكور، معجم العلوم الاجتماعية، ٤٧٤.

(٢) ينظر: أ. د موفق سالم نوري، أ.م. د، القيم الحضارية في السنة النبوية المطهرة، بحث مقدم لجائزة الأمير نايف بن عبد العزيز للسنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، ١٥.

(٣) ينظر: عبدالرحمن النحلاوي، التربية الاجتماعية في الإسلام، ١٣٠.

(٤) ينظر: محمد أحمد بيومي، علم اجتماع القيم، ١٨٤-١٨٥.

الأخرى[1].

ومن هنا جاءت ورقتنا البحثية لبيان الدلالات القيمية المجتمعية التي كرسها وعززها العمل الخيري، في المجتمعات فاقدة الحياة الانسانية، وكل معطيات الحياة الكريمة مسلوبة القيم؛ بسبب الأحداث الكارثية التي مرت عليها، ولاسيما مدينتنا الموصل، فكانت الورقة بعنوان (أثر العمل الخيري في تعزيز القيم المجتمعية – الموصل (نينوى) أنموذجا).

(١) ينظر: محمد أحمد بيومي، علم اجتماع القيم، ٢٦.

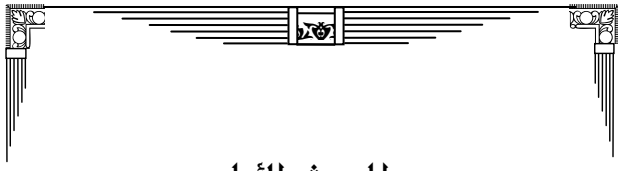

المبحث الأول

العمل الخيري في المجتمع الموصلي
- الأسس والجذور -

تعد كثرة وتعدد المؤسسات والجمعيات والمنظمات الخيرية في أي مجتمع ما، ظاهرة صحية تدلل علىٰ التكامل بين القطاع الحكومي والقطاعات الخاصة، وعلىٰ عمق التكافل والتآزر والشعور بالمسؤولية من أبناء ذلك المجتمع؛ لأن هذه المؤسسات والمنظمات الخيرية لا تنشأ في المجتمعات إلا بعد مرورها بأزمات وكوارث تفقد المجتمع عديدًا من مقوماته المادية والمعنوية، مخلفة وراءها عشرات إن لم نقل مئات الألوف من الفقراء والمحتاجين والمعوزين والمعاقين الذين يحتاجون إلىٰ مد يد العون لهم، ومحاولة انتشالهم من واقعهم المرير الذي فرض عليهم خارج ارادتهم.

ومن الجدير بالذكر الاعتراف أن المجتمعات الغربية سبقت المجتمعات الإسلامية بإنشاء تلك المؤسسات الخيرية، ونرىٰ ذلك واضحًا في الدول المتقدمة، فهذه أمريكا يوجد فيها أكثر من (مليون ونصف) منظمة خيرية، ويتطوع ٤٤٪ من أفراد المجتمع لديهم، بواقـــع (٢٥ بليون ساعة تطوع) سنويا بما يعادل (٩ ملايين) عامل بـــدوام (٨ ساعات) يوميا. وبلغ حجم التبرعات للمنظمات الخيرية بأمريكا عام ٢٠٠٢م ما يعادل (٢١٢) مليار دولار، منها ٣٨٪

لأغراض دينية[1]. والفرق بين واقعنا في دولنا العربية الإسلامية والدول الغربية كبير في الوعى بأهمية العمل الخيري علىٰ الرغم من أننا في عالمنا الإسلامى نستطيع أن نتميز أكثر، لأننا نمتلك قيمـًا ودوافع في ديننا الإسلامى الحنيف تحضنا علىٰ تقديم العمل الخيري والتطوعى للإنسان وغيره. فهناك عديد من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التى تحض علىٰ ذلك قال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]. وقال ﷺ: «فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبٍ أَجْرٌ»[2].

ومدينة الموصل كغيرها من مدن العراق لم تشهد العمل الخيري، بهيكلياته المؤسساتية والتنظيمية بصفتها وحدات مستقلة وفاعله، ولها نظام وبرامج عمل، وتمتلك إدارة وموظفين إلا بعد الأحداث الأمريكية ودخول قواتها العراق. وما كان من أعمال خيرية سابقة لذلك التاريخ لا تعد إلا جهودًا فردية شخصية يمكن أن تكون علىٰ شكل لجان مسجدية أو مناطقية شبه سرية أقرب منها إلىٰ العلنية لأسباب لسنا بصدد ذكرها.

ويمكننا القول إن مدينة الموصل تتكون من وحدات اجتماعية متعددة، تبدأ بالأسرة والعائلة وصولاً إلىٰ العشيرة والقبيلة، يرتبط أبناؤها بعلاقات حميمية ممتازة علىٰ المستوىٰ الأسري والعائلي والقبلي، علىٰ وفق معطيات قيمية

(١) عبدالله ياجهام، الفرق بين العمل التطوعي والعمل الخير، مقال نشر علىٰ الانترنيت في ٣٠/ مايو/ ٢٠١٣م، احقاف اليوم.

(٢) أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفرائيني (ت: ٣١٦ هـ) مسند أبي عوانة، تحقق: أيمن بن عارف الدمشقي، دار المعرفة (بيروت، ١٩٩٨م) كتاب البيوع، باب: ذكر الخبر المبين أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب، رقم الحديث (٥٣٤٢).

مستمدة في غالب أحيانها من ديننا الحنيف، وفي أحيان أخرىٰ من قيم التعايش والترابط الأسري والاجتماعي، ومن موروث العادات والتقاليد العشائرية.

فهناك عديد من العلاقات الاجتماعية تتمثل بقيم التواصل والتعاطف والتساعد والتكافل وإقامة المشاريع الخيرية، علىٰ الرغم من تنوع التركيبة الاجتماعية للمدينة بين إثنيات متنوعة وديانات متباينة – إسلامية – مسيحية – يزيدية – يمكن أن تتعدد إلىٰ مذاهب مختلفة لكل ديانة منها. وإن كانت بمستويات متواضعة، من إعالة يتيم في العائلة أو القبيلة، أو تزويج متعفف، أو مساعدة ذي حاجة ألم به الدهر، وما شابه ذلك من المشاريع الخيرية الأخرىٰ. ويمكن أن يتجاوز ذلك حدود الترابط بالدم، ليتمثل بين أبناء الأحياء التي تتشكل منها الوحدات السكنية لمدينة الموصل، وأقضيتها ونواحيها، يتجسد ذلك في المناسبات والأزمات بأنواعها.

وقد تطورت تلك المشاريع الخيرية لتتشكل علىٰ وفق منظمات ومؤسسات وجمعيات خيرية متعددة ومتنوعة، انبثق عديد منها من الذوات الاجتماعية التطوعية لأبناء المدينة، التي تربطها روابط الإنسانية والوطنية، وتجمعها مشاعر الرحمة والشفقة، والعيش المشترك، كان الدافع الاساس في ولادتها الشعور بمعاناة أبناء المجتمع، والإحساس بحرمانهم وحاجتهم. إذ مُوّلت غالب تلك المؤسسات من تبرعات ومعونات المحسنين أبناء المدينة، وقد تشكلت تلك المؤسسات بهيكليات مختلفة تتعامل علىٰ وفق المعطيات والظروف التي تسارعت متغيراتها بعد أحداث ٢٠٠٣م، وما حل بالبلد في العموم ولاسيما مدينة الموصل من أزمات، وكوارث، وتفجيرات، وتشريد، وتجويع، واقتتال راح ضحيته مئات الألوف من الأرواح البريئة من كل مكونات أبناء المجتمع العراقي.

فأخذت تلك المنظمات والمؤسسات الخيرية دورها ولو بمستويات متواضعة في لملمة بعض تلك الجراحات التي أصابت أبناء المجتمع، من كفالة يتيم، الذين كانت أعدادهم تتزايد يوما بعد يوم، بسبب الأحداث، وكثرة الانفجارات، وعمليات التدمير والتخريب التي مرت بها المدينة. أو إعالة أرملة، أو مساعدة محتاج لا يكاد يجد لقمة العيش لأسباب كثيرة ومتنوعة، من أهمها توقف سيرورة عجلة الحياة المدنية أو تعطيلها؛ لفقدان كل المقومات الأمنية التي ينبغي أن يتمتع بها أبناء المجتمع، والتي انعكست آثارها علىٰ الجوانب الأخرىٰ وفي مقدمتها الجانب والمادي والمعاشي.

ومع كل تلك الظروف المأساوية التي عاشها أبناء العراق، ولاسيما أبناء مدينة الموصل، غير أن المشاريع الخيرية والعمل التطوعي كان متواصلاً ومتفاعلاً له آثاره الواضحة بين أبناء المجتمع. نذكر علىٰ سبيل المثال جمعية فعل الخيرات التي تتأسست (سنة ٢٠٠٦م) بوصفها مؤسسة ذات قطاعات متعددة، وهيكلية تنظيمية – بعد دخول القوات الأمريكية إلىٰ العراق – بقيادة أحد اساتذة جامعة الموصل[1]. لتتكون من فروع مختلفة في هيكليتها – فرع كفالة يتيم، وفرع إعانة الأرامل والعوائل المتعففة، وفرع مخازن الإغاثة من سلات غذائية ودوائية، ومجمع سكني يضم ما يقرب من ٤٥٠ عائلة من عوائل الأرامل والأيتام، وتوزيع الكسوة الشتوية والصيفية لطلاب المدارس ورياض الأطفال، وسلة رمضان التي توزع علىٰ المعوزين والمحتاجين.

(١) هو الأستاذ الدكتور سعدالله توفيق سليمان، من أبناء مدينة الموصل، استاذ في جامعة الموصل تخصص علوم كيمياء، شغل منصب رئيس الجامعة، حالياً متقاعد، كرس كل وقته وجهده للعمل الخيري. جمعت المعلومات من خلال لقاء الباحث مع الدكتور سعدالله.

وكذلك جمعية (أم المساكين) التي تقودها امرأة عصامية[1]، كرست كل طاقاتها وقدراتها للعمل الخيري، وكانت محور استقطاب لطاقات نسائية ورجالية أخرىٰ بمختلف أعمارها، تعمل بصمت بعيداً عن كل أضواء الإعلام والشهرة؛ وسبب انتقائنا لهاتين الجمعيتين أنهما تميزتا عن غيرهما من المؤسسات والجمعيات الخيرة العاملة في الساحة الموصلية، وتضمان في هيكليتهما فروعاً للتوجيه والتوعية الاجتماعية والدعوية إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، فضلاً عن العمل الإغاثي والخيري، وهما بذلك قد تمكنا من توجيه الناس في الأزمات والكوارث، نحو المسار الإسلامي الصحيح والفاعل. وقد بدأت جمعية أم المساكين عملها منذ (سنة ١٩٩٩م) بجهود متواضعة، تعمل في المجتمع الموصلي ولاسيما وسط الأحياء السكانية الفقيرة، التي تحتاج لمد يد العون والمساعدة. ثم تطور عملها بعد دخول القوات الامريكية إلىٰ العراق، لتتوسع ويتضاعف جهدها إلىٰ مشاريع خيرية واسعة النطاق، وعلىٰ مستويات مؤثرة في المجتمع، لتتلاءم مع حجم الكارثة التي حلت بالبلد والمجتمع ولاسيما الموصلي. وكانت هيكليتها علىٰ شكل أقسام متعددة: قسم كفالة الأيتام بأعداد تتراوح بين ١٥٠ إلىٰ ٢٥٠ يتيماً بتوفير كل المستلزمات الضرورية لهم، وقسم إعالة العوائل الفقيرة والمحتاجة، وذلك بتجهيز تلك العوائل بمواد معاشية عينية شهرية تفي بسد حاجة العائلة لذلك الشهر، وقسم مشروع الصدقة الجارية، كفتح مشغل خياطة، أو مشروع

(١) هي الأستاذة شهلة ياسين حمو الحمداني، بكلوريوس علوم رياضيات، مدرسة علىٰ ملاك وزارة التربية والتعليم، تعمل في مجالات الاعمال الخيرية والاغاثية وكفالة الايتام، كما انها تسهم في مجالات الدعوة والارشاد الإسلامي في مساجد مدينة الموصل. جمعت المعلومات من خلال لقاء بين الباحث والاستاذة شهلة.

ربحي متواضع، وقسم كسوة الشتاء والصيف، يتلخص عملة، بجرد أكبر قدر ممكن من الاطفال والشباب طلاب المدارس ولاسيما المحتاجين، وجلب ملابس شتوية وصيفية لهم.

بدأت هذه المشاريع الخيرية تضمحل وتتلاشىٰ شيئًا فشيئًا حتىٰ توقفت عن عملها نهائيًا، بعد دخول تلك العصابات الإرهابية (داعش) لأسباب متعددة، منها: الانقسام والتشظي لأفراد المجتمع علىٰ مستوىٰ الأسرة الواحدة بين رافض ومؤيد لأفكار تلك العصابة، بخاصة أنها قدمت مشروعها الفكري بكل صوره وأشكاله علىٰ أنه ديني إسلامي أصولي، يستند إلىٰ الفهم السلفي بحسب زعمهم – مرجعيته القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة – بفهم سلف الأمة بما فيهم صحابة الرسول ﷺ والتابعين لهم. ورفضهم لكل المشاريع الخيرية التي تولي اهتمامات مباشرة بالمجتمع، وتلبية حاجياته ما عدا التي تنضوي تحت إمرتهم. ولا بد من مبايعة أصحاب المشروع لخليفتهم المزعوم. فتوقفت وتعطلت كل المشاريع الخيرية التي كانت فاعلة بين أبناء المجتمع قبل دخولهم المدينة، بسبب رفض أصحابها البيعة، أو الانضمام إلىٰ صفوفهم.

بمرور الأيام تمكنت داعش بخاصة أنها مكثت مدة ليست بالقليلة في مدينة الموصل (ثلاث سنوات) أن تزرع في نفوس من تابعها من أبناء المدينة، وانخرط في صفوفها، صفة الولاء لها بكل هيكلها التنظيمي ابتداءً من ادنىٰ وحدة تنظيمية وصولاً إلىٰ خليفتهم المزعوم. فتقطعت بذلك كل الروابط التي كانت قائمة بين أبناء المجتمع، علىٰ مستوىٰ الأسرة أو العائلة أو القبيلة الواحدة. والسبب الأساس في ذلك صفة الوحشية المفرطة التي تعامل بها أفراد تلك العصابة مع أبناء المجتمع الموصلي بمختلف هيكليتها التنظيمية (ديوان الحسبة – ديوان الزكاة –

ديوان المظالم...إلخ).

ومن هنا بدأت عملية التفكك الأسري، التي تبعها انحسار وتوقف لكل المشاريع الخيرية التي كانت قائمة بين وحدات المجتمع الموصلي، بسبب عوامل البغض، والكره، والحقد، وعدم الثقة... التي زرعها داعش بين أبناء المجتمع.

وبعد خروج داعش من المدينة مخلفة وراءها كارثة جسيمة بكل صورها واشكالها؛ بسبب قسوتها ووحشية سلوكيات أفرادها مع أبناء المجتمع الموصلي، فضلاً عن عشوائية خطة التحرير من القوات الامنية (أزهقت مئات الألوف من الأرواح وخلفت دماراً كاملاً لكل البنىٰ التحتية للمدينة وانعدمت القيم التكافلية والمجتمعية بين أفراد المجتمع فضلا عن تراجعات أخلاقية وسلوكية بين أعداد كبيرة من أبناء المجتمع ولاسيما الشباب ردة فعل لسلوكيات داعش)، فجاءت المؤسسات والمنظمات الخيرية لتعيد بعض تلك القيم التي كانت ماثلة في أوساط ذلك المجتمع من خلال بث روح التعاون والتآزر المجتمعي، بتقديم عديد من المعونات العينية للمتضررين والمنكوبين، والأخذ علىٰ أيديهم، والشد من أزرهم، وتوجيههم نحو ضرورة العمل الجماعي والتكافلي.

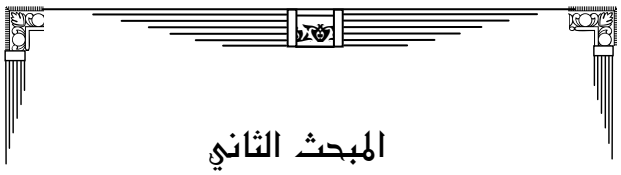

المبحث الثاني

العمل الخيري وتعزيز قيم الفرد

للقيم أهمية كبيرة، وانعكاسات واضحة علىٰ الفرد والمجتمع، فهي إما مقدسة أو مشروعة، والإنسان يعيش في هذه الحياة علىٰ وفق قيم معينة، يطبقها ويسعىٰ إليها ليحققها في حياته، فيسعد بها في عيشه مع ذاته ومع أبناء مجتمعه، وكأنها نوع من أنواع المحددات أو الغايات، يعد الوصول إليها من أنواع النجاحات التي يرومها في حياته، وعلامة ومؤشراً إيجابيا للتفاعل المنشود في واقعه الاجتماعي.

وتتنوع هذه القيم علىٰ وفق المحددات والمؤشرات الدينية والاجتماعية، التي يعيشها الإنسان، ويؤمن بها، ويتفاعل معها. فمنها ما هو ديني تتضح معالمه من خلال اطلاع الإنسان علىٰ أصل الوجود والكون، والتزامه بتعاليم الدين، وحرصه علىٰ إرضاء الخالق جل وعلا، ونيل ثوابه، والبعد عن عقابه[1]. ومنها ما هو اجتماعي يُكتسب من خلال تفاعل الإنسان في مجتمعه، ووسطه الذي يعيش فيه، ومحاولته الإيجابية في تفعيل تلك المكتسبات في واقعه الاجتماعي. ومنها ما هو جمالي يكمن في النفس البشرية التي خلقها الله عز وجل كحب الاشياء

(١) بوعطيط سفيان، القيم الشخصية في ظل التغير الاجتماعي وعلاقتها بالتوافق المهني، رسالة دكتوراه علوم في علم النفس العمل والتنظيم، جامعة منتوري – قسنطينة – الجزائر، ٦٦ – ٦٧.

الجميلة التي تبعث في النفس السرور[1].

ومنها ما هو تفاعلي يظهر من خلال واقع الإنسان الذي يعيش فيه ومع أبناء مجتمعه، وهذه القيم تظهر بوضوح وذات أثر فاعل في الأزمات والكوارث التي تصيب المجتمعات والحياة الإنسانية. ومما لاشك فيه أن أبناء مدينة الموصل قد غُرست في نفوسهم عديد من تلك القيم السامية المكتسبة من ديننا الحنيف، أو من المورث العشائري والمجتمعي علىٰ وفق معطيات قيمية راقية، غير أن المدة الزمنية التي سيطرت فيها عصابات داعش علىٰ المدينة، والتي تقرب من ثلاث سنوات حجمت عديدًا من تلك القيم؛ بسبب السلوكيات الوحشية التي تعامل بها أفراد تلك العصابات، وأساليب القمع والتهديد والتعذيب، والتي مارسوها مع أبناء المدينة دون الأخذ بنظر الاعتبار أو الاحترام، لجنس من ذكر أو أنثىٰ، أو صغير وكبير، جاهل أو عالم، وكأن الإسلام علىٰ وفق معاييرهم جاء لقمع الناس، وهضم حقوقهم، والانتقاص من كرامتهم، ومحو قيمهم وهويتهم المجتمعية.

ومنذُ اللحظات الأولىٰ للشروع بعمليات التحرير لمدينة الموصل، عادت تلك الجمعيات إلىٰ عملها لتتفاعل مرة أخرىٰ مع أبناء المجتمع، ويمكن القول إنها ضاعفت من عملها ومجهوداتها الخيرية لتتلاءم مع حجم الكارثة التي بدأت ملامحها تظهر واضحة يومـًا بعد يوم، بنزوح أغلب ابناء الأحياء السكنية التي تتحرر تباعـًا، لتتشكل وحدات سكنية علىٰ هيئة مخيمات (ديبكة – الخازر – حسن شامي1 – حسن شامي2 – جمكور... إلخ) ليضم كل مخيم من تلك المخيمات أعدادًا تتراوح بين (٣٠٠٠ – ٥٠٠٠) نسمة، خرجوا من المدينة لا

(١) بوعطيط سفيان، القيم الشخصية في ظل التغير الاجتماعي وعلاقتها بالتوافق المهني، ٩٨ – ٩٩.

يحملون سوىٰ إثباتاتهم الشخصية بعد أن دمرت بيوتهم، أو سرقت تحت أصوات المدافع والراجمات.

تنوعت أعمال تلك الجمعيات الخيرية محاولة تغطية وتلبية كل ما تحتاجه تلك المخيمات من مواد غذائية، وأدوية بأنواعها، وكسوة، وما إلىٰ ذلك من حاجيات تسعف حالهم في ذلك الشتاء القارص. لتبدأ معها عملية تفعيل وإحياء القيم الإنسانية والمجتمعية التي فقدت من أوساط المجتمع، وأولىٰ تلك القيم هو إشعار الناس بقيمتهم الإنسانية التي كرمهم الله تعالىٰ بها ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]. بعد أن سلبتها منهم داعش، وذلك بالقيام علىٰ شؤونهم، وتهيئة ما يحتاجونه من مستلزمات وحاجيات، ومحاولة التخفيف من معاناتهم التي تحملوها، وبث روح الأمل والتفاؤل بهم من جديد.

ثم محاولة تفعيل كل قيم بناء الشخصية الإيجابية التي تسهم في التفاعلات المجتمعية والتي تتمثل (بالحياة الشريفة – الثقة بالنفس – التعايش المجتمعي – البعد عن الحرام – صيانة الأمانة – مساعدة الأخرين – الكرامة – قيم الايمان بقضاء الله وقدره...إلخ)؛ لأن عديدًا من تلك القيم تلاشت من نفوس مكونات كبيرة من أبناء المجتمع لأسباب متعددة، في مقدمتها – كما اشرنا سابقًا – سلوكيات داعش وإذلالهم لكل مكونات المجتمع الموصلي وبشتىٰ الوسائل والطرق. وعدم المساواة بين المحتاجين والمعوزين من أبناء المجتمع، فالمنتمي إلىٰ صفوفهم يتمتع بكل أسباب العيش الرغيد، وتلبىٰ كل حاجياته المعاشية بكل يسر وسهولة، دون غيره من أبناء المجتمع الموصلي، فضلاً عن عامل الجوع الذي عاشه أغلب أبناء المجتمع الموصلي خلال مدة وجودهم، وخلال

العمليات العسكرية لتحرير المدينة، وحرمانه من أبسط مقومات الحياة الكريمة، وأدنىٰ وسائل العيش البسيط، الذي دام أكثر من سنة، ثم وازع الرعب والخوف الذي بثته تلك العصابات بين أفراد المجتمع الموصلي؛ لمحاولة الضغط عليهم لكسبهم في صفوفهم، بخاصة في أثناء عمليات التحرير.

وحين بدأت تلك المؤسسات والجمعيات والمنظمات بعملها بعد الشروع بعمليات تحرير مدينة الموصل من القوات العسكرية، كان من أولويات عملها محاولة إنقاذ المحاصرين ما بين القوات العسكرية وقوات داعش في الأحياء التي شرعت في تحريرها، ففي تلك اللحظات رويت قصص وأحداث قد لا يمكن تصديقها، فقد تركت الأم ابنها؛ بسبب الخوف والهلع والحذر من نيران القذائف والصواريخ، وتسديدات قناصو داعش، ومحاولة إيصالهم إلىٰ أماكن آمنه بعيدة عن مرمىٰ الإطلاقات والقذائف النارية، ثم إسعاف الجرحىٰ وتضميدهم ونقلهم إلىٰ أماكن آمنة.

وهنا يأتىٰ دور تلك الجمعيات والمؤسسات الخيرية في إقامة دور الرعاية الاجتماعية، التي تعنىٰ برعاية حفظ الأطفال الذين فقدوا أهاليهم في الحرب، ومن جراء عمليات التحرير، أو ممن قتلهم داعش ظلماً وعدواناً، لم يتبق لهم معيل ومعين من أهاليهم. ولاسيما ما تمثلت به جمعيتا فعل الخيرات، وأم المساكين وحققتاه في الواقع المجتمعي – بخاصة أن القائمين عليهما يتمتعون بالتزام ديني وخلقي مسارًا في حياتهم الشخصية والعملية – باحتضانهما مئات من الأيتام، وإسكانهم في بيوت ودور، ورعايتهم ومتابعة شؤونهم المعاشية والصحية والتربوية والتعليمية، ومنحهم الحق في الحياة الكريمة، تجسيداً حقيقيا لقيم بناء الشخصية المستقيمة والفاعلة، بعيداً عن مزالق الانحراف والضياع في أزقة

وطرقات المدينة. التي يُؤمل منها التفاعل المجتمعي مستقبلاً؛ مما يحقق الاستقامة للفرد، وعدم الانحراف بكل مستوياته الفكرية والأخلاقية والسلوكية، والتي تنعكس مستقبلاً علىٰ الفرد والمجتمع، وتخلف منعطفات خطيرة يمكن أن تزعزع الكيان المجتمعي بكل منظومته القيمية. ومن ناحية أخرىٰ فقد أسهمت جمعية فعل الخيرات بعملها هذا في ترسيخ قيم الشخصية الإيجابية، وتربية هؤلاء الأيتام مختلفي الأعمار علىٰ قيم الفضيلة التي ينبغي أن تكون جزءًا يقينيا راسخا في أعماق كل مسلم، لأنها تتعلق بالفهم الإيماني للفضائل التي هي جزء من قيم الإيمان.

إن إعداد النفس الإنسانية بهذه الطريقة عبر عنه الإسلام (بحسن الخلق) التي تعني قواعد التعامل مع الآخرين بما يحقق المعطيات الآتية: كسب مرضاة الله تعالىٰ أولاً؛ لأن حسن الخلق مما أمر الله به. ثم تحقيق قدر كبير من انسيابية الحياة بطريقة تحقق النفع والمصلحة للجميع، وبما يقود إلىٰ إبعاد أي أذىٰ أو ضرر قد يقع عليهم أو علىٰ أحدهم. ومثل هذه المعطيات تقود في المحصلة إلىٰ التعبد لله تعالىٰ؛ ليكون ضابطًا ورقيبًا علىٰ السلوك، كذلك يقود إلىٰ إعمار الأرض علىٰ وفق المنهج الشرعي الذي أمر الله تعالىٰ به[1]. وهذه من أهم قيم الفرد التي ينبغي أن تترسخ في الإنسان المسلم منذ طفولته ونشأته ليتفاعل معها في سيرورة حياته المستقبلية مع أبناء مجتمعه.

(١) ينظر: أ. د موفق سالم الجوادي، د، القيم الحضارية في السنة النبوية، ٢٣٣.

ومن بين تلك القيم التي حاولت غرسها تلك الهيئات والجمعيات الخيرية في نفوس النازحين والمتضررين من جراء تلك الحرب، قيمة الصبر علىٰ البلاء، وعدم اليأس في هذه الحياة الدنيا، بخاصة أن الانسان عرضة للمصائب والنكبات، والله سبحانه وتعالىٰ جعل الصبر من عزم الأمور﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورىٰ:٤٣].

فهو من المقومات الرئيسة في بناء الشخصية، والإنسان المنكوب والمكلوم يحتاج إلىٰ التذكير والتعليم، يقول الله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:٣].

يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه: «لو فكر الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم، وذلك أن العبد كماله في تكميل قوتيه: قوة العلم، وقوة العمل، وهما الإيمان والعمل الصالح، وكما هو محتاج لتكميل نفسه فهو محتاج لتكميل غيره، وهو التواصي بالحق، وقاعدة ذلك وساقه إنما يقوم بالصبر»[(١)].

ويقول عليه الصلاة والسلام: «أفضل الإيمان: الصبر والسماحة»[(٢)]

فلم يعط النبي ﷺ هذه المكانة للصبر إلا لأهميته البالغة في حياة المسلم، وتكوين شخصيته الإيجابية مع الأحداث، فبالصبر تحتمل الابتلاءات والمصائب، وبالصبر يعف المرء عن الشهوات، ويكون ذلك أسمىٰ وأرفع إذا كان محرومـًا من حلال هذه الشهوات، فيكون عفيفـًا طاهراً.

(١) ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ت: ٧٥١هـ) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، دار ابن كثير، ط٣(بيروت، ١٤٠٩هـ،١٩٨٩م) ٤٥٥.

(٢) المناوي، فيض القدير، ٢/ ٣٨.

كذلك فإن من بين تلك القيم المهمة التي عززتها تلك الجمعيات في نفوس الناس بعد خروجهم من أزمتهم قيمة القناعة والرضا، فقناعة المرء تجعله عفيفاً عما في أيدي الآخرين، ولا يتمنىٰ الاستحواذ علىٰ ما عندهم، ولا يسخط علىٰ قدر الله الذي قدره له، فهي كانت تقوم بدور التوجيه لهم مع ما يمنحونهم من وسائل العيش المتواضعة، وبلوغهم لحالهم هذا لا يعني الاستسلام، والقعود، وعدم العمل، وعدم التطلع إلىٰ أن يرتقي المرء بنفسه بعد انهياره في كل الجوانب ولاسيما الجانب المادي؛ ليخرج من أزمته بكل الوسائل المتاحة والمشروعة.

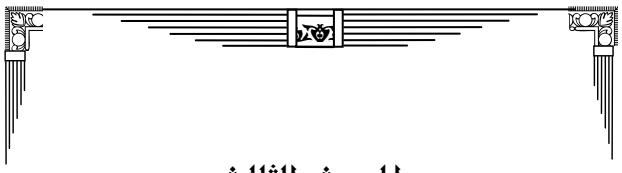

المبحث الثالث

العمل الخيري وتعزيز القيم الاسرية.

من الجلي الواضح أنه لا أمة حيث لا أسرة، بل إنه لا آدمية حيث لا أسرة[1]؛ لذلك حرص الإسلام حرصـًا شديداً علىٰ كيان هذه الخلية، ونظم شؤونها التنظيم الذي يحفظ لها أداء دورها العظيم في حفظ حياتها واستقامتها؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يستشعر معاني الأمان والطمأنينة إلا داخل جماعة منظمة تنظيمـًا محكمـًا، يعرف كل فرد فيها ما عليه وما له بدقة عالية. وليس أدق ولا أحكم تنظيمـًا من الأسرة، بخاصة أن هذ التكوين مدعم شرعيـًا وأخلاقيـًا وعرفيـًا في المجتمعات كلها، بما يوفر أسسـًا رصينة؛ لتحفظ الأسرة تكوينها بشكل فعال، وليس ببعيد عن الواقع إذا قلنا: إن الإنسان بدون أسرة كشاة ضالة، بائسة شقية تهيم علىٰ وجهها، عرضة لكل معاني الخطر؛ لذلك لابد من الأسرة[2].

كما أن إشباع الحاجة إلىٰ الانتماء يعد أمراً ضروريا؛ لاستقامة الحياة البشرية، فمن دونه يضطرب المرء ويتخبط ليرتمي في أحضان أي جماعة تحقق له مثل هذا الإشباع، في حين نجد أن تحقيقه داخل الأسرة يساعده كثيراً في تنظيم هذه الحاجة

(١) ينظر: محمد ابراهيم الهسنياني، في ظل الأسرة المسلمة، ١٢.

(٢) ينظر: عفيف عبدالفتاح طبارة، الخطايا في نظر الإسلام، ٩٦.

بالانتماء إلىٰ الجماعات الإيجابية النافعة ذات القيم، بعد أن يتخلص من الشعور بالاضطراب الناجم عن عدم انتمائه إلىٰ أسرة.

تستند الأسر في مجتمعاتنا الشرقية ولاسيما الإسلامية منها، في بناء منظومتها القيمية إلىٰ التصورات التي كونها الإسلام عن الآخرة والمصير الذي يؤول إليه الإنسان؛ ليجعل المصير الأخروي مرتهناً بمسائل معينة، والتزامات محددة، منها ما يتعلق بالعلاقات الأسرية بأبعادها الثلاثة: الوالدين، والزوجين، والأقارب.

ولقد أدت المؤسسات والهيئات والجمعيات الخيرية دوراً كبيراً في تعزيز تلك القيم، بخاصة تلك التي تتعلق باحترام الوالدين، والشعور بالانتماء الأسري، والعلاقات الحميمية التي كادت أو فقدت من بعض أوساط المجتمع الموصلي؛ بسبب إملاءات داعش، والتثقيف بين الاوساط المجتمعية من خلال وسائل إعلامهم بعدم الرجوع والعودة إلىٰ رأي الآباء والأمهات بالانضمام إلىٰ صفوف تلك العصابة بخاصة أنها تجاهد في سبيل الله علىٰ وفق زعمهم.

فكانت عمليات الإنقاذ والإسعاف والإيواء، للناجين والفارين من قبضة داعش، ومن وطأة نيران الحرب الضروس التي فُرضت عليهم دون إرادة أحد منهم، أول الأعمال التي قامت بها تلك الهيئات والجمعيات الخيرية، فبعد مباشرة القوات الأمنية بكل صنوفها بالعمليات العسكرية لتحرير مدينة الموصل من عصابات داعش، بدأت عمليات النزوح لسكان المدينة تتابع خلال عمليات التحرير علىٰ شكل جماعات وأفراد، نجاةً بأنفسهم، من هول ما عانوه خلال عمليات التحرير، ومنع عصابات داعش لمن أراد النزوح. بل هناك أعداد هائلة من سكان المدينة – أطفال وشباب وشيوخ ونساء – قتلوا علىٰ أيدي أفراد تلك العصابة؛ بسبب محاولاتهم الفرار من المدينة، ثم تلاحقت نيران مدافع وصواريخ

قوات التحرير لتقتل أعداداً أخرىٰ هائلة من سكان المدينة، الجثث والأشلاء في الشوارع والطرقات، وهناك من قتل في داره ولم يتمكن أهله من نقله إلىٰ المقابر لدفنه، ودفن في حديقة المنزل، أو في إحدىٰ غرف المنزل، وهناك من قتل ولم يجد من يدفنه إلا بعد مرور عشرات الأيام. فالصورة المأساوية التي عاناها أهل الموصل لم تشهدها مدن العالم منذ أوقات موغلة في عمق التاريخ الإنساني.

فقامت كوادر تلك الهيئات والجمعيات بتوزيع الأدوار، فهناك من تتبع آثار عمليات التحرير، يسير خلف القوات العسكرية مخاطراً بنفسه، متوغلاً في أطلال الأحياء السكنية للمدينة، محاولاً إنقاذ ما يمكن إنقاذه من السكان الناجين، ومساعدتهم علىٰ النزوح والخروج من المدينة، وكوادر أخرىٰ تولت عمليات الإسعاف الإنساني بكل صوره وأشكاله، وتقديم الإسعافات الأولية بتقديم علب مياه الشرب، ووجبات الغذاء السريعة، لمن يسير في الطريق فارا من المدينة إلىٰ مخيمات النزوح، في حين تركزت كوادر تلك الجمعيات الخيرة بعملها داخل المخيمات، بتهيئة المكان، وتقديم الخدمات التي يمكن تقديمها، من مياه شرب وغذاء وأغطية نوم وملابس، بخاصة أن الأحوال الجوية كانت قاسية، بسبب برودة الجو، وتساقط الأمطار؛ ليتطور بعد ذلك عمل تلك المؤسسات والهيئات داخل المخيمات ليتلاءم مع واقع حال تلك المخيمات بخاصة أنها حوت أعداداً هائلة من سكان مدينة الموصل، لم يتمكنوا من العودة إلىٰ أماكنهم لأسباب مختلفة.

حتىٰ تمكنت بعملها الدؤوب بعيداً عن التغطية الحكومية والرسمية، من صناعة حياة إنسانية لسكان تلك المخيمات، يمكن أن ترتقي إلىٰ أدنىٰ مستويات الحياة الإنسانية التي تنشدها كل المؤسسات المهتمة بحقوق الانسان، علىٰ الرغم

من كبر حجمها، وتزايد أعداد سكانها يومـًا بعد يوم، كما تمكنت من تكريس وتفعيل قيم المحبة والتعاون والتآلف الأسري، - بين تلك العوائل النازحة والمكلومة، كلٌّ بمصيبته وألمه - وتعيد لهم تواصلهم الأسري من خلال التخفيف من معاناتهم، وإشعارهم بكرامتهم الإنسانية وحقهم بالحياة الكريمة، وأن ما أصابهم مقدر من الله تعالىٰ ولابد لهم من الصبر والتحمل، وبث روح الأمل من جديد بحياة قادمة يمكن أن تكون أفضل مما مضىٰ، فبدأت الأسر النازحة تستعيد عافيتها الإنسانية، وقيمها الأسرية، ولملمة شتاتها، الذي تناثر بسبب عصابات داعش، فقد حصلت انقسامات وتشظيات أسرية كبيرة في المجتمع الموصلي، وفي الأسرة الواحدة بين مؤيد ورافض لداعش، أحدثت تلك الحالة نوعـًا من التفكك الأسري، وعدم الانسجام بين أفراد الأسرة الواحدة، وتبادل الاتهامات لهول الأحداث التي مرت بهم.

كما أسهمت تلك الهيئات الخيرة في تعزيز قيم الاستقرار الأسري وترسيخها من خلال سد حاجة الأسر التي انهارت وتشردت في العراء؛ بسبب الأحداث التي حلت بهم، وولدت عديدًا من المشاكل الأسرية التي كانت تتفاقم يومـًا بعد يوم؛ بسبب الحاجة والعوز والحرمان، وعدم المقدرة علىٰ سد حاجات الأسرة الأساسية من مأكل ومشرب، سواء كان ذلك في المخيمات بين العوائل النازحة، أو في أوساط العوائل المتبقية في المدينة شبه المدمرة، معدومة الحياة.

المبحث الرابع

العمل الخيري وتعزيز القيم المجتمعية

لما كانت القيم أساس بناء المجتمعات؛ بل هي أداة تحكم أفراده، وتُحدثُ بينهم التفاعل المستمر، فإنها لا تنشأ من فراغ، وإن أعظم موجهاتها هي ثقافة المجتمع، فما القيم الاجتماعية كالتسامح والتعاون والمحبة والرحمة، والأخذ بالحق والعدل، والقوة الإيجابية إلا دليل علىٰ ثقافة المجتمع المتأصلة فيه، التي يتلقاها الفرد والمجتمع جيلاً عن جيل، وبها يتعايش ويبقىٰ في وئام. ومن خلال تجلية دور القيم الاجتماعية المشتركة في تحقيق التعايش الإيجابي بين فئات المجتمع يتبين أن التمسك بالقيم واجب إنساني، وضرورة اجتماعية لكل تلك الفئات؛ من أجل أن يستمر الوئام والتعايش الإيجابي والانسجام الإيجابي.

ومعيار القيمة هو ما يحدد المرغوب والصحيح والجيد من الصفات، التي تنبثق من ثقافة المجتمع، وعلىٰ ذلك فهي الخصائص أو الصفات المرغوب فيها من الجماعة وتوجه سلوكهم، وهي المعيار الأساس الذي يوضح الفرق بين الحلال والحرام، أو الصحيح والخاطئ، والجيد والسيء ويفصل بينهما، التي تحددها الثقافة القائمة، مثل التسامح، والحق، والعدل، والأمانة، والجرأة، والتعاون، والإيثار، والقوة، وهي أداة اجتماعية للحفاظ علىٰ النظام الاجتماعي والاستقرار بالمجتمع. كذلك يتمثل مفهوم القيمة في الضمير الأخلاقي والشعور

بالواجب الذي يصوغ أساليب السلوك، وأنواع التصرف الإنساني. ويبرز مفهوم القيمة في أسلوب الإنسان وتلبية مطالبه العضوية من مأكل ومشرب وحاجاته الكمالية، ثم نزعاته الدينية والأخلاقية والإبداعية، والقيمة بذلك تمثل التحديد لاتجاه سلوك الإنسان لكي ترسم مقوماته وتعين بنيانه.

ومما لا شك فيه أن للعمل الخيري دوراً فاعلاً في استقرار المجتمع، وترسيخ قيمه، وبث روح الطمأنينة والراحة النفسية بين أبنائه؛ إذ يسهم بشكل ملموس في زرع البسمة علىٰ الشفاه، وإبعاد الحيرة عن النفوس التائهة، والسير بها نحو شاطئ الأمان في مجتمع تسوده أواصر المحبة، وروابط المودة، ويعلو فيه نداء الأخوة والتكافل والتآزر من أجل إقامة مجتمع متلاحم مترابط آمن مستقر(١).

وفي مقدمة القيم الاجتماعية التي جسدتها تلك المؤسسات الخيرية بين أبناء المجتمع المكلوم، بإرادة الخير للآخرين ومحاولة اعانتهم، ونفعهم، والتخفيف من آلامهم، فهكذا ينبغي أن يكون الإنسان ولاسيما المسلم دائم النفع للناس، فَعَنْ ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إلىٰ اللهِ؟ ، وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إلىٰ اللهِ؟ ، فَقَالَ: «أَحَبُّ النَّاسِ إلىٰ اللهِ ، أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، يَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ يَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ يَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِي مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ -مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ- شَهْرًا»(٢).

(١) ينظر: أ.د نصر سلمان و أ.د سعاد سطحي، العمل الخيري وأثره في الاستقرار الاجتماعي،، بحث نشر في مجلة مداد التابعة للمركز الدولي للأبحاث والدراسات، ٣١/ مايو/ ٢٠١٠م، ٣.

(٢) الطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم، المعجم الكبير،، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، ط٢ (الموصل، ١٤٠٤ه، ١٩٨٣م) باب: العين، عبدالله بن عمر، =

فدلالة الحديث شاملة في بعدها القيمي، فالأمر يتعلق بالخلق كلهم، بعيداً عن أي تصور ديني أو عرقي أو طبقي أو فئوي، النفع بمعناه الشامل للجميع.

فالعمل الخيري يسهم إسهاماً فاعلاً في الاستقرار الاجتماعي من خلال القضاء علىٰ الظواهر الاجتماعية السلبية، كالتسول، والتشرد، ونقص الغذاء، والكساء، وتفشي الأمراض، والفاقة في بعض فئات المجتمع، التي تخرج من كوارث كهذه الكارثة المجتمعية في مدينتنا الموصل، مما تنجر عنه حالات من الاكتئاب، والنقمة علىٰ الأغنياء، وحسدهم وبغضهم، وتمني زوال النعمة عنهم، الذي سيؤدي إلىٰ نخر أسس وروابط الأخوة والجوار والمحبة والرحمة والمودة والتكافل بين أفراد المجتمع، مما يجعل تدخل العمل الخيري أمراً حتميا للقضاء علىٰ ذلك، وتحقيق الاستقرار الاجتماعي، ومحاولة إرجاع البسمة للمكلومين والمتضررين في تلك المجتمعات[1].

إن حالة الخوف والهلع التي انبعثت في نفوس أبناء المجتمع الموصلي دون إمكان إدراكها أو تحديدها أو وصفها، والتي تصدرت المشهد بعد سيطرة عصابات داعش علىٰ المدينة، وإحكام قبضتهم علىٰ كل مفاصل الحياة المجتمعية المدنية والسياسية والعسكرية فيها، وممارستهم لكل أساليب القمع والترهيب والوحشية المفرطة مع مختلف شرائح المجتمع، لا يفرقون في ذلك بين ذكر أو أنثىٰ وبين شيخ كبير السن، أو طفل لم ينط به التكليف، كان له الأثر الأكبر في تلاشي عديد القيم المجتمعية ولاسيما التكافلية منها، وتفكك عديد الروابط الأسرية والمجتمعية التي ورثها وتعلمها ومارسها في سابق أيامه.

= _____

رقم الحديث (١٣٦٤٦).

(١) ينظر: أ.د نصر سلمان و أ.د سعاد سطحي، العمل الخيري وأثره في الاستقرار الاجتماعي،، ٤.

وساد المشهد المجتمعي حالة من الانعزال واللا مبالاة القسرية، بسبب الحذر من التدخل أو المساهمة بأي حدث يخص الواقع الجمعي. وعاش أبناء المجتمع حالة من التفكك والتحلل من عديد القيم المجتمعية والتواصلية التي تسهم في بنائه ولاسيما التكافلية والخيرية.

كما أن العوز والحاجة خطر علىٰ الأخلاق والسلوك؛ إذ تؤثران تأثيراً بالغًا في أخلاق الإنسان وسلوكه، فقد تقود بعض الناس إلىٰ السرقة، أو التسول، أو السطو علىٰ ممتلكات الغير بدافع سد جوعاتهم وستر عوراتهم، أو بدافع الانتقام من هؤلاء الأغنياء الذين فضلهم الله عليهم في الرزق، وبخلوا به علىٰ أبناء دينهم ومجتمعهم. فضلاً عن هذا فإن الفقر المدقع يُلجئ بعض الناس - قصد تحصيل حاجياتهم ومتطلبات أسرهم الضرورية - إلىٰ التلبس ببعض الأخلاق الذميمة، للوصول إلىٰ مبتغاهم، جاعلين نصب أعينهم مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، فقد يضطرون إلىٰ الاستدانة والاختلاس والكذب وعدم الالتزام بالعهود، واقتراف كل تلك الخصال الذميمة التي توصلهم لمصدر الغذاء والكساء، مما يؤثر في الأخلاق الفاضلة المنتشرة في المجتمع، بل يقوض أركانها من القواعد، وقد بين الرسول ﷺ خطر الفقر علىٰ الفرد، إذ يضطره إلىٰ الاستدانة، وعدم القدرة علىٰ الوفاء به؛ بسبب إعساره الشديد، مما يجعله يقدم علىٰ ارتكاب بعض الكبائر، والتلبس ببعض صفات المنافقين، كالكذب، وإخلاف الوعد، مما يؤثر في طهارة ونقاوة المجتمع الذي يعيش فيه، فلقد قال ﷺ: «إن الرجل إذا غرم-استدان- حدث فكذب، ووعد فأخلف«[1].

(١) أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ) سنن أبي داود، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمي =

ولقد أسهمت ومازالت تلك الجمعيات ولاسيما جمعيتي فعل الخيرات وأم المساكين في تخفيف معاناة المجتمع الموصلي في مخيمات النازحين، وبين من عاد أو من بقي بين ركام أبنية المدينة المهدمة، محاولاً بث روح الحياة من جديد، وإن كان عابثاً لعظم حجم الكارثة التي حلت بالمدينة، حيث لا ماء ولا كهرباء ولا غذاء ولا أبسط مقومات الحياة، ليصل الحال بتدخل الجمعيات بحفر الآبار الارتوازية لسد حاجة السكان والمتعايشين هناك من الماء في تلك الأحياء، أو بتوفير خزانات الماء، أو بوجبات غذائية (أرزاق جافة). تنقل لي الأخت المشرفة علىٰ الجمعية من خلال الفيديوهات المسجلة والموثقة بالصورة والصوت، استغاثات تلك العوائل ذات الأعداد غير القليلة والمتكاثرة يوماً بعد يوم، عن حاجتهم إلىٰ حفر الآبار بعد أن يئسوا من استجابة الحكومة والمسؤولين لهم، ولو بأبسط الامور، ليتمثل بإزالة ركام الأبنية المهدمة، مخلفات الحرب من الطرقات الرئيسة والممرات الفرعية للمدينة ولأحيائها السكنية، لمحاولة إعادة انسيابية السير، فضلاً عن عدم توفير أي جهد معاشي أو خدمي آخر.

كما أن من أهم القيم المجتمعية التي أحيتها المؤسسات والجمعيات الخيرية بما فيهم جمعية فعل الخيرات وأم المساكين قيمة المساواة الإنسانية بين أبناء المجتمع، بعد أن فقدت هذه القيمة أيام التسلط الداعشي؛ بسبب تمايزهم لأفراد عوائلهم وتنظيماتهم بكل المعطيات الحياتية العامة والخاصة. فتكرست جهود تلك الجمعيات بإحياء قيمة المساواة بين أبناء المجتمع من خلال الاعطيات والهبات والمنح التي كانت تقدمها لتلك العوائل المكلومة، مع مراعاة الحالات الخاصة أو أعداد أفراد الاسر، بطرق إنسانية رفيعة المستوىٰ، مقبولة بين كل الأوساط الإنسانية.

=

(بيروت، ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩م) باب الدعاء في الصلاة، رقم الحديث (٨٨٠).

ومن هنا نستشعر الدور الريادي الذي تمثلت به تلك الجمعيات الخيرية في تعزيز القيم الأسرية بين تلك العوائل المكلومة، والتي من أهمها قيم الوحدة، والشعور بالكيان المستقل، والإحساس بالإنسانية التي منحها الله لبني البشر، وقيم الاستقرار العائلي والأسري، الذي لا يتحقق شيء منها إلا بتوفير أبسط مقومات الحياة، والذي تم من خلال تلك الجمعيات والهيئات الخيرية التي أحست بحاجة تلك الأسر إلىٰ تفعيل قيم التراحم والتعاطف الذي ينبغي أن يسود المجتمع، ليعم السلام والوئام، والاستقرار المنشود[1].

(١) ينظر: أ.د عبدالكريم بكار، ثقافة العمل الخيري كيف نرسخها وكيف نعممها، ٢٩.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمي والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وبعد...

تمثلت النتائج التي توصلنا إليها من خلال ورقتنا:

١-ينبغي تفعيل ثقافة العمل الخيري في المجتمع العربي والإسلامي، ومحاولة نشره بين كل أوساط المجتمع وفئاته المختلفة، لمحاولة تنشيط قيم التكافل والتعاون والتراحم التي جاءنا بها ديننا الحنيف في كتاب الله الكريم وسنة نبيه ﷺ.

٢-أدت المؤسسات والهيئات والجمعيات الخيرية التي وجهت عملها نحو المجتمع الموصلي بعد خروجه من الكارثة التي حلت به دوراً مهماً في لملمة جراحات أبناء المجتمع، ومحاولة سد حاجاتهم الضرورية، ورفع معنوياتهم المنهارة، وتعزيز قيمهم المسلوبة، ولاسيما جمعيتي فعل الخيرات، وجمعية أم المساكين.

٣-علىٰ الرغم من كل الجهود المبذولة من تلك الهيئات الخيرية بكل أنواعها، ومحاولة تغطية أكبر قدر من حاجات المنكوبين، إلا أن مدينة الموصل

ما زالت مدينة منكوبة بكل الصور والأشكال، وكل البنىٰ التحتية منهارة، وغالب الأحياء السكنية بخاصة أحياء الساحل الأيمن مهدمة، وما تزال الأنقاض تملأ الطرقات، وما تزال هناك عديد من الجثث البشرية تحت تلك الأنقاض، ونقص واضح في المواد الغذائية، وشح كبير في المياه ولاسيما مياه الشرب.

٤- تمكنت جمعيتا فعل الخيرات وأم المسكين من تعزيز قيم الفرد والأسرة، وكذلك القيم المجتمعية، بين أوساط المجتمع الموصلي، من خلال عملهم الخيري، وتوجيههم للعوائل المنكوبة بقيم الثبات والصبر والرحمة والتعاطف والقناعة.

٥-يجب علىٰ العالمين العربي والإسلامي تفعيل دور المؤسسات الخيرية بشكل أكبر بين أبناء مجتمعاتهم، منطلقين من حض نصوص ديننا الحنيف في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، علىٰ فعل الخير، ومساعدة الآخر، والتكافل الاجتماعي، وبث روح الأمل والتفاؤل في الأوساط المجتمعية. بخاصة أن المنطقة العربية ساخنة بالأحداث الكارثية المتنوعة، التي هي بأمس الحاجة إلىٰ تفعيل كل وسائل العمل الخيري.

المصادر والمراجع

١- إبراهيم مدكور، معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة/ ٢٠٠٨م).

٢- إحسان محمد الحسن، موسوعة علم الاجتماع، الدار العربية للموسوعات (بيروت/ ١٩٩٩م).

٣- بوعطيط سفيان، القيم الشخصية في ظل التغير الاجتماعي وعلاقتها بالتوافق المهني، رسالة دكتوراه علوم في علم النفس العمل والتنظيم، جامعة منتوري – قسنطينة – الجزائر.

٤- أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ) سنن أبي داود، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمي (بيروت/ ١٤٣٠ هـ/ ٢٠٠٩م).

٥- سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، ط٢ (الموصل/ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م)

٦- سوندرا شو-هاردي ومارثا إيه تايلور وبافي بودوان-شوارتر، المرأة والعمل الخيري، جهود نسائية جريئة نحو صياغة عالم أفضل، ترجمة: أميرة أحمد إمبابي، مؤسسة هنداويسيآيسي (المملكة المتحدة/ ٢٠١٧م).

٧- عبدالرحمن النحلاوي، التربية الاجتماعية في الإسلام، دار الفكر (دمشق/ ٢٠٠٦م).

٨- أ.د عبدالكريم بكار، ثقافة العمل الخيري كيف نرسخها وكيف نعممها، دار السلام (القاهرة/ ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م).

٩- عبدالله ياجهام، الفرق بين العمل التطوعي والعمل الخير، مقال نشر علىٰ الانترنيت في ٣٠/ مايو/ ٢٠١٣م، احقاف اليوم.

١٠- عفيف عبدالفتاح طبارة، الخطايا في نظر الإسلام، دار العلم للملايين (بيروت/ بلا).

١١- أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفرائيني (ت: ٣١٦ هـ) مسند أبي عوانة، تحقق: أيمن بن عارف الدمشق، دار المعرفة (بيروت/ ١٩٩٨م).

١٢- محمد ابراهيم الهسنياني، في ظل الاسرة المسلمة، مطبعة الزهراء (الموصل/ ١٩٨٧م).

١٣- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت:٧٥١هـ) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، دار ابن كثير، ط٣ (بيروت/ ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).

١٤- محمد أحمد بيومي، علم اجتماع القيم، دار المعرفة الجامعية (الاسكندرية/ بلا).

١٥- أ. د موفق سالم نوري، أ.م. د، القيم الحضارية في السنة النبوية المطهرة، بحث مقدم لجائزة الامير نايف بن عبد العزيز للسنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، طبعة خاصة بالجائزة.

١٦- المناوي: محمد عبدالرؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير من حديث البشير النضير، ضبطه وصححه: أحمد عبدالسلام، دار الكتب العلمية، ط٣ (بيروت/ ٢٠٠٦م).

١٧- أ.د نصر سلمان و أ.د سعاد سطحي، العمل الخيري وأثره في الاستقرار الاجتماعي، بحث نشر في مجلة مداد التابعة للمركز الدولي للأبحاث والدراسات، ٣١/ مايو/ ٢٠١٠م.